

الذاتية وإشكالية التغيير الحضاري في فكر مالك بن نبي

*Subjectivity and the problem of cultural change
in the thought of Malik bin Nabi*

أ.د. رباني الحاج*

Email : elhadj.rebani@univ-mascara.dz

جامعة معسكر، الجزائر

تاريخ الإرسال: 2019/10/14 تاريخ القبول: 202/02/22 تاريخ النشر: 2020/07/09

ملخص: يعطي مالك بن نبي أهمية بالغة لتغيير الذات كسبيل لتحقيق التغيير الموضوعي المتعلق بالمجال الحضاري الإجتماعي والتاريخي، فالنهضة الحضارية لا تتحقق دون العودة إلى الذات من أجل استنهاضها وبعثها من أجل الدخول في دورة حضارية جديدة، وعليه فتغيير الواقع مشروط بتغيير الفكر وإصلاحه، ودون ذلك يبقى التغيير سطحيًا لا يؤدي إلى تجديد حقيقي ينتج عنه تحول حضاري عميق .

كلمات مفتاحية : النهضة؛ الذاتية؛ الحضارة؛ التغيير.

Abstract:

Malik bin Nabi gives great importance to self-change as a way to achieve substantive change related to the social and historical field of civilization. Change remains superficial and does not lead to real renewal resulting in a profound civilization transformation.

Keywords : Renaissance; Subjectivity; Civilization; Change.

مقدمة:

*المؤلف المرسل

انصبت جهود المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905م-1973م) على تشخيص واقع المجتمعات الإسلامية بهدف الكشف عن مكامن الخلل التي أدت إلى السقوط الحضاري والضعف التاريخي الذي جعلها مجتمعات عاجزة عن المشاركة في بناء وتشديد الحضارة الإنسانية المعاصرة التي عرفت تطورا كبيرا في المجالات العلمية والثقافية المختلفة، وهو ما جعله يحفر في بدايات وتطور هذه المجتمعات عبر مراحلها التاريخية المتتالية، بغية القبض على طبيعة وعيها الثقافي والحضاري، الأمر الذي دفع به إلى تركيز اهتمامه على طبيعة الأفكار التي أطرت كل مرحلة من المراحل على اعتبار أن الأفكار السائدة لها دور هام وحاسم في توجيه وعي وإرادة الأفراد، إذ تتحول إلى منظور يرون من خلاله العالم المحيط بهم، بشكل يجعلها هي ذاتها وعميم الذاتي، ولذلك فكل تشخيص يسعى إلى التغيير والانتقال من واقع الجمود والانحطاط يتطلب فهم وتحليل الأسس التي يتكون منها ذلك الوعي، وهذا ما أدركه مالك بن نبي وركز عليه بشكل واسع في خطابه الفكري الذي توطئه رؤيته الحضارية لمشكلات الواقع الإسلامي فما هو الدور الذي تلعبه الأفكار باعتبارها وعيا ذاتيا في إحداث التغيير المطلوب؟.

1- الحضارة كأفق للوعي:

ينطلق مالك بن نبي في تحديد مفهومه للحضارة من "خلال تأملاته في حركة النهضة في العالم الإسلامي التي تأثرت بالحضارة الغربية في سعيها لمحاولة تجاوز الوضعية المأساوية التي يخبرها هذا العالم حيث يرى أنه إذا كان الهدف هو تحصيل حضارة، فإن الجهود التي تبذل لن تصل إلى نتيجة، لأنها لم تتعمق القضية جيدا"¹ يعني هذا أن المشكلة بالنسبة لمالك بن نبي ليست مشكلة بسيطة تقتضي حلا أنيا ومستعجلا يخرج المجتمعات الإسلامية من واقعها المتخلف في جميع مجالاته، إنما هي مشكلة تتعلق بوجود خلل على مستوى الروح التي تسري داخل وعي الأفراد والمجتمعات، إنها قضية أفكار ومفاهيم وتصورات بالدرجة الأولى، مشكلة قيم بلغة الفيلسوف الألماني نيتشة (1844-1900)، أي أن الأمر يقتضي إعادة النظر في الطرق والمناهج والمفاهيم التي

نفكر بواسطتها، إننا هنا بصدد دعوة إلى العودة إلى الذات من خلال نقدنا لرؤيتها للأشياء في العالم، ولذلك يقول بن نبي "ولكي نزيل اللبس نقول بأن مجتمع ما بعد التحضر ليس مجتمعا يقف مكانه، بل يتقهقر إلى الوراء بعد أن هجر درب حضارته وقطع صلته بها"² تبدوا الفكرة هنا واضحة، فهي تعبر عن موقف مالك بن نبي من الماضي الحضاري للمجتمعات الإسلامية، فبالنسبة إليه، لا يمكن أن نجد حلولاً لواقع مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة بالانقطاع عن مصادر الوعي الذاتي التي وإن حصل بها خلل إلا أنها لا زالت حية في الشعور تحتاج فقط إلى إعادة تفعيل وتكييف واستبطان من جديد، وهذه خطوة ضرورية لا يمكن تجاوزها بالنسبة لكل دعوات النهضة والإصلاح.

وعليه فالتغيير المطلوب ليس تغييراً جزئياً، بل هو تغيير شامل وعميق ولذلك يعطي بن نبي للإنسان دوراً مركزياً في معادلتها الحضارية، فكل تغيير ثقافي وحضاري كبير يتطلب "تغييراً في الشخصية الإنسانية، بالمعنى الواسع، الذي يتضمن الروح الإنساني، من السلوك إلى العلاقات الاجتماعية إلى أسلوب الحياة، في هذا الإطار يؤكد لنا مالك بن نبي أنه من الضروري تجديد الإنسان بحيث ينسجم مع التقاليد الإسلامية الحقيقية والمناهج العلمية الجديدة"³

فتجديد الوعي هو المدخل الرئيسي لكل تغيير حقيقي، أي تغيير حضاري شامل تتجدد على إثره روح الإنسان المسلم، بحيث تتحرر من أساليب التفكير الخاطئة وتنسجم مع رؤية تساعد على الانسجام مع ذاتها ومع مستجدات العالم المعاصر في الوقت ذاته.

2- التغيير وامتلاك الذات:

فالانقطاع عن الذات في نظرين بن نبي هو أحد أصعب المشكلات التي يواجهها الوعي الإسلامي المعاصر على مستوى الفرد والجماعة، وهو ما يجعل طرح مشكلة التخلف الحضاري أكثر تعقيداً وتركيباً، فالتخلف هنا لا يصبح فقط مشكلة مادية واقتصادية تتعلق بالوسائل والأدوات، بل يتحول إلى مشكلة في الوعي الذاتي للإنسان كإنسان يفكر بطريقة معينة

تجعله ينظر إلى واقعه نظرة محددة وموجهة يكون تأثيرها حاسما في فهمه وتفسيره ومن ثم تشخيصه وتغييره، وهذا ما يعبر عنه بن نبي بقوله "إن هناك ما يدعوننا إلى الإلحاح على هذه النقطة هنا، فالواقع المائل في امتداد نهضة العالم الإسلامي عبر قرن كامل من الزمان، دون أن تتوصل حتى الآن إلى النتيجة التي بلغتها مجتمعات أخرى انطلقت من نفس النقطة، لا يعزى لفقدان الوسائل، وإنما يرجع إلى فقدان الأفكار"⁴

ليست المسألة متعلقة بفقدان الأفكار بالمعنى الكمي، إنما المقصود فقدان الطريقة الملائمة والأفكار اللازمة، ولذلك يميز الأفكار ويقسمها إلى أفكار أصيلة وأفكار فعالة، وأفكار قاتلة أو مميته وأفكار ميتة، فغربة الأفكار بشكل يجعلها ناجعة وفعالة هي مهمة النقد الذاتي، وهذا هو طريق الخلاص، لذلك يقول بن نبي "والواقع أننا عندما نسائل التاريخ، نجد أن الحضارات قد تشكلت ضمن ظروف هيمنت عليها فكرة الخلاص، وسيطرت على وعي الإنسان حتى غيرت اتجاهه، وهذه الفكرة لا تشكل صياغتها، ولا تصبح حاسمة إلا أمام خطر مرعب"⁵.

لا يمكن في نظر بن نبي أن يحصل تغيير حقيقي إلا بوجود تحدي قوي يدفع إلى النظر إلى التغيير باعتباره خلاصا وليس مجرد تحول سطحي، أي أنه ضرورة ملحة لا تقبل التأجيل، تفرض نفسها على الوعي الفردي والاجتماعي، فتضعه أمام تحدي يفرض عليه التغيير، فتغيير الوعي ضروري لتغيير الواقع الاجتماعي الاقتصادي بالنسبة لمالك بن نبي، وعليه فمهما يكن، مصدره التاريخي "فإن التخلف، لا يشكل سوى مظهر من مظاهر مشكلة الإنسان الذي لم يتعلم طريقة استعمال وسائله الأولية، التي هي التراب والزمن بصورة فعالة، أو قد نسي ما عمله من هذا الاستعمال، مع ملاحظة أن فعالية الإنسان بالذات هي التي تقوم بتحديد بقية العوامل الأخرى"⁶

يعطي بن نبي الأولوية للإنسان كذات مقابل التراب والوقت، فالأمر كله يتعلق، بالوضعية التي يكون عليها موقف الإنسان الروحي والفكري، ومن ثم استعداداته النفسية وقابليته للتغيير، فتخصيصه أو "إعطاءه اهتماما للأبعاد الفكرية والبيسيكولوجية للإنسان، بن نبي، يؤكد بأن كل محاولة إصلاح للروح والشخصية المسلمة يستلزم

مشروعاً ثقافياً، وهو ما يعني أن كل تفكير حول مشكل الإنسان هو تفكير في مشكل الحضارة"⁷

يظهر لنا هذا أن التغيير الحضاري كما يتصوره مالك بن نبي هو تغيير في وعي الإنسان بالدرجة الأولى قبل أن يكون تغييراً في عالم الأشياء والوسائل المادية، وهذا ما يسميه التغيير الحضاري أو التغيير الحقيقي.

3- المجتمع والوعي بالقيم:

فتغيير الوعي يعني تغيير منظومة القيم الاجتماعية والأخلاقية والجمالية أي تغيير عناصر الوعي الذاتي بشكل يجعلها تحضر في جميع نشاطاتنا وأفعالنا بحيث أنه "يجب علينا أن نجد مبررات ومحفزات تمدنا بأهمية حركاتنا، هذه المبررات لها علاقة بمجال الأفكار، وهذا المجال يرتبط بالحس الجمالي، بمعنى أن الحس الجمالي له معنى اجتماعي مهم إذا أخذناه بعين الاعتبار حسب بن نبي"⁸.

وجود محفزات ومبررات له دور مهم في توجيه الوعي بالنسبة لمالك بن نبي، فالوعي الأخلاقي والجمالي له تأثير عميق على الوعي الفردي والاجتماعي لأنه يعبر عن الوعي العميق للذات، فهو متجذر في الشعور والضمير إضافة إلى الحس الجمالي ينتبه بن نبي إلى دور العامل الأخلاقي في التأثير على الذات باعتبارها وعياً بالعالم "فكل علاقة اجتماعية تتضمن في جوهرها قيمة ثقافية مندمجة في القواعد الأخلاقية وكذلك في النظام الخاص بهذا المجتمع"⁹

يؤكد مالك بن نبي هنا على أهمية العوامل القيمية في صياغة وبناء الوعي الذاتي، ومن ثم في بناء ذات لها هوية متماسكة ومتصلة لا تعاني من فراغ أو قطيعة بين الداخل والخارج، أو بين الشعور والواقع، أو بين الفكر والفعل، فالشعور التلقائي العفوي يؤدي إلى الاستجابة الفورية واللاشعورية للحركة والفعل، فيصبح الفعل امتداداً للشعور واستجابة له، وهو ما يعبر عنه بن نبي بقوله "التحضر أن يتعلم (الإنسان) كيف يعيش

في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية، في تنظيم الحياة الإنسانية، من أجل وظيفتها التاريخية.

فإذا فهمنا هذا أدركنا قيمة نظام الدفاع الذي ينصبه مجتمع بطريقة غريزية حول شبكة علاقاته، كي يحميها من أي مساس بها¹⁰

فالدفاع عن شبكة العلاقات هو دفاع عن الشعور الذاتي بالانسجام والتكامل والتواصل، ذلك أن تلك الشبكة من العلاقات ما هي إلا انعكاس لقيم مترسخة في الوجدان الفردي والجماعي، والمساس بها هو بمثابة تهديد لهذا العالم الداخلي المتماسك، ولذلك "فكلما حدث إخلال بالقانون الخلفي في مجتمع معين، حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه"¹¹.

فالعلاقات الاجتماعية في تصور بن نبي ليست علاقات خارجية تماما عن وعي الأفراد، بل هي انعكاس للقوانين الأخلاقية التي توجه شعورهم وتتحكم فيه، وهو ما يجعل المساس بالقيم الأخلاقية يؤدي إلى تفكيك وهدم تلك الشبكة من العلاقات، الأمر الذي يحدث اضطرابا في حركة ونشاط الجسم الاجتماعي، فيبدأ في حركة عكسية تؤدي إلى التقهقر إلى الخلف، لأن تصور بن نبي للتاريخ باعتباره حركة جعله يرى أن الحركة إذا لم تكن في الاتجاه الصحيح والمطلوب فإنها ستكون في الاتجاه الخاطئ وغير المرغوب فيه أي عكس الغاية التي نريد الوصول إليها.

4- المجتمع والوعي بالتاريخ:

وعليه فإن مالك بن نبي يربط بين المجتمع والحركة بشكل عضوي ومنطقي، فيقول في سياق تحليله لصفة ما هو مجتمعي "تكسب الجماعة الإنسانية صبغة (المجتمع) عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها. وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة"¹²

فالمجتمع ليس مجرد مجموعة من الأفراد، بل هو بناء شبكة علاقات وبالتالي الدخول في حركة واعية والبحث عن التغيير من أجل غاية محددة، هذا الذي يسميه بن نبي التغيير الحضاري، أي التغيير من أجل غاية تاريخية، لذلك يأخذ الزمن كامل أهميته هنا باعتباره زمنا شعوريا حضاريا لازمنا غريزيا طبيعيا، وهو ما يجعل بن نبي يستخلص أن "الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يوجد أو يصنع المجتمع. وهدف الطبيعة هو مجرد الحفاظ على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، وهو ما يطلق اسم الحضارة"¹³

فالتجمع البشري ليس غاية في حد ذاته، بل ليس له معنى ما لم يكن للجماعة البشرية أو الإنسانية مشروع تسعى لإنجازه وغاية تعمل من أجلها فالتحول من الطبيعة إلى التاريخ مشروط بهذا الوعي الذاتي يسعى إلى التجسد في مشروع تاريخي أي الارتقاء بالحياة من طبيعتها الغريزية إلى أفق أخلاقي وجمالي إنساني وهو ما لا يراه بن نبي ممكنا إلا في إطار رؤية حضارية متأصلة ومتجذرة في الشعور والوعي الذاتي للجماعة الإنسانية التي تجمع بينها قيم مشتركة فتحول أفرادها إلى جسم واحد يعمل بشكل منظم ومتناسق من أجل غاية مشتركة.

5- الثقافة كوعاء للعيش المشترك:

فالاتحاد الإنساني، يتحول من مرحلته الطبيعية البسيطة إلى مرحلته الحضارية والتاريخية بواسطة الثقافة، "الثقافة تستطيع أن تمنحنا اللحظات الممتعة، إذ توحى إلينا أن نشد أحيانا مجتمعين، وأن نرقص مجتمعين ونضحك مجتمعين، والأداء الحسن لذلك كله ظاهرة مشجعة وجمالية ينبغي عدم الاستخفاف بها، ولكن دورها الأساسي أن تعلمنا العيش المشترك والعمل المشترك، وخاصة الكفاح المشترك"¹⁴

الثقافة باعتبارها انتماء إلى قيم مشتركة تشكل وعينا الذاتي هي أساس التحول من الفكر إلى العمل، وهي العامل الذي يربط بين القول والفعل، بل هي ركيزة وحدة

الشعور داخل الجماعة الإنسانية، وبالتالي هي أساس الدخول في مشروع حضاري والدخول في حراك تاريخي فعال ومثمر هادف، إنها العامل الذي يمتلك من خلاله الوعي والإرادة لمواجهة التحديات التي تواجهنا، لهذا يعطي بن نبي للعوامل البسيكولوجية دورا مهما في تشخيصه وتحليله لحركة التاريخ، إذ يعتبر عن ذلك صراحة بقوله " نجد في التحليل الأخير أن آلية الحركة التاريخية إنما ترجع في حقيقتها إلى مجموع من العوامل النفسية الذي يعد ناتجا عن بعض القوى الروحية، وهذه القوى الروحية هي التي تجعل من النفس المحرك الجوهرى للتاريخ الإنساني".¹⁵

يعيد مالك بن نبي حركة التاريخ إلى العوامل النفسية، ثم يرتفع بها إلى القوى الروحية التي يطلق عليها عادة اسم "الفكرة الدينية" فينتهي الوعي الذاتي عنده إلى الفكرة الدينية باعتبارها المحرك الأول للتاريخ والمؤسس الأول لكل مجتمع وحضارة، "إذن" فالعلاقة الروحية بين الله والإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان، ولقد علمنا أنها تلد في صورة القيمة الأخلاقية، فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية معا على أنهما حدث¹⁶

بهذا الربط بين الفكرة الدينية وميلاد المجتمع، يكون بن نبي، قد أرسى شبكة علاقات متكاملة داخل الوعي والضمير الفردي والاجتماعي، أي بين العوامل البسيكولوجية والاجتماعية والدينية باعتبارها عوامل لتشكيل الوعي الذاتي للفرد والجماعة التي ينتهي إليها عضويا وشعوريا، والتي يعمل معها بشكل مشترك من أجل بلوغ غاية مشتركة تعكس الوعي الذاتي المشترك وهي الغاية التي يطلق عليها بن نبي اسم "الحضارة".

خاتمة:

إن التغيير الحضاري بمعناه الصحيح في تصور بن نبي، مرتبط بتحقيق وعي شامل وعميق في نفوس الأفراد، فدون تغيير الوعي بمكوناته الأخلاقية والجمالية والإجتماعية يظل التغيير سطحيًا ظاهريًا خارجيًا، لا يستجيب للتحديات الحضارية الحقيقية، إن التغيير مرتبط بالمعنى والغاية ومدى وضوحها ورسوخها في الوعي، أما غير ذلك فيجعل من الوعي مغتربا عن الواقع، وهو ما يشكل عائقًا أمام حل المشكلات المطروحة التي هي في عمقها وجوهرها ثقافية حضارية وأخلاقية إنسانية، فدون تغيير عميق في وعي الإنسان وإصلاح ذاتيته وإستعداداته النفسية، تبقى مشكلات التخلف والإنحطاط وما يتولد عنها من ضعف قائمة.

إن إهتمام مالك بن نبي بالتربية في بعدها الأخلاقي والإجتماعي يؤكد هذا الإهتمام الملح على إصلاح الإنسان بتغيير أفكاره وأهدافه وغاياته لكي تصبح منسجمة مع المشروع الحضاري ومتجاوزة لواقع الإنحطاط ومتحررة منه، إن هذا التعويل على إصلاح العلم هو السبيل الحقيقي لأي إصلاح يؤدي إلى التغيير، ومع ذلك فمالك بن نبي لا يلغي معطيات الواقع الموضوعية، بل يعمل على جعلها في خدمة الفكرة الأساسية التي تحرك وتوجه الوعي الذاتي المستقل ومتحرر من الشوائب التاريخ وملايساته باعتباره وعيا نقديا. لذلك يبدوا لنا أن القراءة التقنية التي تركز على الخطوات العملية الإجرائية من جهة والقراءة الإيديولوجية من جهة أخرى لأفكار ومواقف مالك بن نبي هي قراءة إختزالية تخضعه لرغباتها وتصوراتها الذاتية وعليه يجب أن نقرأ مشروعه اليوم بفكر منفتح ونقدي علنا نستفيد من طرحه الحضاري ومواقفه النقدية ومنهجيته التحليلية.

الهوامش :

- ¹ - الطاهر سعود، التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص120.
- ² - مالك بن نبي، الرشد والشبيه، دار الفكر، ط2، الجزائر، 1988م، ص173.
- 3- Salah Fadi, culture et conversion culturelle dans l'islam, dynamisme reflexifs de malek Bennabi, p220.
- 4- مالك بن نبي، القضايا الكبرى،، ترجمة عمر مستقوي. دار الفكر، بيروت، دمشق، ط1، 2000، ص58.
- 5- المرجع السابق، ص58.
- 6- المرجع نفسه، ص ص 70-71.
- 7 - Salah Faid, ibid. p p 221-222.
- 8 -Ibid. p233.
- 9 -Ibid. p232.
- 10- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، الجزائر، دمشق، ط3، 1986، ص94.
- 11- المرجع نفسه، ص53.
- 12- المرجع السابق، ص19.
- 13- - المرجع نفسه، ص19.
- 14- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، المرجع السابق، ص26.
- 15- مالك بن نبي، المرجع نفسه، ص56.
- 16- مالك بن نبي، المرجع السابق، ص56.

المراجع والمصادر:

- الطاهر سعود، التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 2006م.
- مالك بن نبي، الرشد والشبيه، دار الفكر، ط2، الجزائر، 1988م.
- مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ترجمة عمر مستقوي، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط1، 2000.
- مالك بن نبي - ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، الجزائر، دمشق، ط3، 1986.
- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة،- ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط4، 1984.
- Salah Fadi, culture et conversion culturelle dans l'islam, dynamisme reflexifs de malek Bennabi.